

"بداية المجتهد ونهاية المقتصد"

أهميته، تسميته، سنة وضعه، توثيق نسبه إلى مؤلفه

ملخص البحث

نال كتاب "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" للقاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي شهرة عالية، قديماً وحديثاً، وقد حظي بنصيب كبير من الاهتمام دراسة وبحثاً.

وقد رأينا أن نلقي الضوء على جوانب في هذا الكتاب لم تتلَّ حقها من الاهتمام -فيما نرى-، حتى يكون بحثنا جهداً متواضعاً يضاف إلى أعمال المتقدمين، ولم نلتفت إلى كثير من المسائل كفانا مؤونة البحث فيها الكثير من العلماء السابقين.

بدأنا البحث بتمهيد يتضمّن تعريفاً موجزاً بالقاضي ابن رشد الحفيد، من حيث: اسمه، مولده، نسبه، شيوخه، تلامذته، العلوم التي برع فيها، محنته ووفاته.

ثمّ تناولنا القضايا التي نرى أنها لم تتلَّ الاهتمام الكافي في كتاب "بداية المجتهد"، وهي:

أولاً: أهمية الكتاب: وركّزنا فيها على الشهرة العالمية التي نالها من خلال ترجمة بعض فصوله إلى لغات أوروبية؛ كما صنع الباحث الجزائري أحمد الأعمش، والمستشرق: ج. هـ. بوسكيه، والراهب فيريه، وليون برشيه. ووضّحنا الأسباب التي نرى أنّها كانت وراء هذه الترجمات.

ثانياً: تسمية الكتاب: ووضّحنا سبب هذه التسمية بالرجوع إلى المصادر المتخصصة، وشفعنا هذا بنصوص من "بداية المجتهد" تؤيّد ما ذهبنا إليه. وبحثنا في التسمية التي اشتهر بها الكتاب "بداية المجتهد، ونهاية المقتصد"، والتسمية التي ذكرها ابن رشد نفسه "بداية المجتهد، وكفاية المقتصد".

ثالثاً: توثيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه: وناقشنا فيه النص الذي تفرّد به ابن عبد الملك المراكشي عن ابن زرقون المالكي يتهم فيه ابن رشد بسرقة كتاب (بداية المجتهد)، ورددنا عليه ردّاً علمياً موضوعياً، وحاولنا اكتشاف شخصية ابن رشد من نصوص الكتاب، فضلاً عن أقوال النقات من العلماء.

رابعاً: تأليف الكتاب: وناقشنا فيه ما ذكره المؤرخ الأديب الدكتور محمود علي مكي أن ابن رشد قد صرّح بسنة تأليف الكتاب، واستدلّ بما ذكره ابن رشد في آخر كتاب الحج.

أمّا منهج المؤلف في كتابه فقد أشبعه المؤلفون بحثاً، وقد أشار إليه ابن رشد في الصفحات الأولى من كتابه، وتناوله كثير من الباحثين بدراسة مستقلة؛ لذا رأينا أن كلامنا فيه سوف يكون مكروراً، فلم نبحثه في مبحث مستقلّ، يشير إلى ما يتميز به هذا الكتاب من وضوح المنهج ودقته، واستيعابه أقوال الفقهاء وأدلّتهم، وتحويله على الاستدلال باللغة والنحو في كثير من المسائل؛ فهو يذكر المسألة الفقهية، ثم يذكر أقوال المذاهب فيها سواء أكانت من المذاهب الأربعة المعروفة، أم من المذهب الظاهري، أم من المذاهب المندرسية كمذهب الأوزاعي، وأبي ثور، وغيرهما، ثم يذكر أدلتهم، ويبين أسباب الخلاف بينهم سواء أكانت أصولية، أم حديثية، أم لغوية ونحوية.

ونحن لا ندّعي أنّ ما ذكرناه في هذا البحث هو الفيصل، ولكننا حاولنا أن ننير بعضاً من المسائل التي تستحق النقاش، وكما قيل: "رأينا صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب".

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.